شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٨

النفاق

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

النفاق [1] 1

– مفهوم النفاق 2

– نشأة النفاق وتاريخه 2

– أنواع النفاق 3

– الفطرة والنفاق 4

– الرياء والنفاق 5

– خصال المنافقين 7

– الحكمة من عدم تسمية المنافقين 8

– النفاق بين الكفر والعمل 9

– الواجب على العلماء حيال المنافقين 9

– السياسة الشرعية في مواجهة النفاق 10

– تطهير النفس من النفاق 12

[1]) رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=O29gCApX12o

مفهوم النفاق

النفاق في لغة العرب وكذلك في اصطلاح الشارع هو إضمار الشيء مخالفاً لما يبديه المرء بقولٍ أو فعل .

والنفاق مأخوذ من نفق اليربوع وذلك أنه يجعل له مخرجا بسيطًا إذا هوجم من جهة خرج من جهة أخرى ، وبعض العلماء يجعل النفاق هو الدخول إلى الإسلام من باب والخروج منه من باب آخر ؛ ولذلك سماهم الله تعالى الخارجين ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(التوبة : 67) يعنى أنهم فسقوا بمعنى خرجوا ، وفسقة الرطبة قيل إذا خرجت من قشرتها ، وخروج الشيء يسمى فسقا .

وسماهم الله تعالى خارجين باعتبار أنهم خرجوا من الإسلام سواء كان خروج كلي أو جزئي بشيء من الأقوال والأفعال ; فالمنافق لا يكون في دائرة الإسلام كاملا ، منهم من بقي في طرفٍ منه ومنهم من بدأ يخرج بجزء من بدنه ومنهم من خرج بالكلية وهم على أصنافٍ وأنواع .

نشأة النفاق وتاريخه

معلوم من جهة الأصل أنه لابد أن يكون في كل بيئة من البيئات ضربًا من ضروب النفاق الذي يوافق الإنسان فيه شيئًا من وجهٍ ثم يخالفه من وجهٍ آخر ، فالنفاق يوجد في كل فكرٍ أو عقيدةٍ قوية ذات شوكة .

والإسلام يوجد فيه منافقون ، وهؤلاء المنافقون موجودون في الإسلام منذ صدره الأول ، ففي كل فكر ودعوة قوية ذات شوكة يكون ثمة نفاق ، وهذا النفاق ليس خاص في دائرة الإسلام بل في كل ملة أو سياسة أو قدرة مادية أو معنوية يكون ثمة نفاق ، أُناس يظهرون الموافقة في الظاهر لكنهم يضمرون شيئًا آخر ، فهؤلاء من جهة اللغة منافقون ، ولكن الاصطلاح الشرعي غلب على وصف المنافقين على ما حذر منه الله تعالى ورسوله ﷺ في مواضع عديدة .

والنبي ﷺ من جهة بقائه في مكة لم يكن ثمة منافقين ; لأن النبي لم يكن يُرجى في ظاهرهِ قوة ولا تمكين ، فإن المعادلة المادية الموجودة في مكة من جهة الموازنة : كفار قريش كانوا أقوياء بالقوة المادية والنبي ﷺ على خلافهم ، ولهذا لا حاجة إلى وجود نفاق أو ما يسمى بالمداهنة ولا المحاباة ولا المداراة وذلك لاستضعافهم لحال النبي ﷺ.

ولهذا العلماء ينصون على أنه لا يوجد في المهاجرين أهل نفاق ؛ والسبب في ذلك أن النبي ﷺ لم يكن من أهل القوة حتى يُهاب ؛ ولهذا فُضِّل المهاجرون على غيرهم باعتبار كمالهم وكذلك من آمن منهم آمن بقوة وفضل في زمن ضعف أهل الإسلام بخلاف ما كان بعد هجرة النبي ﷺ فإنه كان ثمة تمكين وقوة وهيبة ؛ فنُصر النبي ﷺ بالرعب بمسيرة شهر كامل ، فوجد النفاق للمحاباة والمجاملة ولطلب السلامة .

وعليه كان لا يوجد في العهد المكي منافقون بينما وجد في العهد المدني بسبب قوة الإسلام ؛ ولذلك قوة المنافقين والنفاق بين مدٍ وجذر بحسب قوة الإسلام ، فيزداد النفاق بقوة الإسلام ويضعف بضعفه .

أنواع النفاق

النفاق مرتبط بمصالح الفرد باعتبار أن الإنسان يريد تمرير مصالحه في زمن قوة ، والمصالح تتباين وشر النفاق هو النفاق الأكبر .

والنفاق على نوعين : النفاق الأكبر والنفاق الأصغر .

النفاق الأكبر : وهو الذي يُظهِر فيه الإنسان الموافقة الكلية ويضمر المخالفة الكلية ، وهذا أخطر أنواع النفاق ، وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر ولا يؤمنون بأركان الإيمان فهم من جهة الأصل منافقون نفاق أكبر وهم أخطر على أمة الإسلام من غيرهم ، فلا يؤتمنون على شيء باعتبار أنهم لا يتفقون مع المسلمين في شيء من الأصول ولا من الفروع ، وهؤلاء كانوا في زمن النبي ﷺ وإن كانوا قلة إلا أن خطورتهم كانت عظيمة جدًا .

النفاق الأصغر: هم الذين يظهرون صلاحًا ويضمرون فسقًا ومعصية ، وهم الذين يوافقون في الأصول ولكن لم يصلوا لدرجة الكمال في الإيمان لتقديم المصالح الذاتية في باب من الأبواب .

ولهذا شعب النفاق متعددة وكثيرة وهي بعدد شعب الإيمان ، فكل شعبةٍ من شعب الإيمان يقابلها شعبةٌ من شعب النفاق ثم يتجاوزها إلى شعبة من شعب الكفر .

فالنفاق الأكبر لا يوافق في فروع ولا أصول ، وأما النفاق الأصغر فيوافق في الأصول ويختلف في الفروع ولكن لا يصل لدرجة الكمال كالذين يعظمون دين الله تعالى ولكن لديهم معاصي ومحرمات وآراء وشبهات ونحو ذلك ، لكن أصل الإسلام والإيمان موجود لديهم فيؤمنون بما جاء عن النبي ﷺ ، يؤمنون بالله تعالى واليوم الاخر وملائكته وكتبه ورسله والقدر والبعث بعد الموت وأصول الإسلام الكلية ، ولكن لديهم مصالح مادية فيتخطوا الإسلام بخطوة أو خطوتين لمصالحهم فهذا النفاق الأصغر ولكنه يزيد ويصل لمرحلة يشترك فيها مع النفاق الكبر ؛ وذلك أنه كلما نقص الإنسان من جهة فروع الإسلام و أقدم على أصوله فإنه يقوده إلى النفاق الأكبر.

ولهذا يعد النفاق الأصغرعتبة تصل بالإنسان للنفاق الأكبر ما لم يتدارك الإنسان نفسه ويكبح جماحه بالأعمال الصالحات والعودة إلى الحق .

الفطرة والنفاق

جاءت الشريعة متوافقة مع الفطرة فطلبت من الإنسان أن يفعل الشيء الذي يقتنع به ، والشريعة ما جاءت لإيجاد النفاق وإنما جاءت لنفي خبث النفاق ،والمسلمون جاءوا لتمييز الصف إما مؤمن وإما كافر ،ولهذا يقول الله تعالى﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن : 2) أوجد الله تعالى الناس ليكونوا فريقين ، هناك فئة تتبع مصالحها ولو بتبني بعض القناعات التى لا تؤمن بها باطنًا فيقومون بإظهار الأمر لمصالح مادية أو للأمن على أنفسهم ونحو ذلك ، هذا الأمر لوجوده قدرًا جاءت الشريعة بالمعالجه له .

والصفات التي جاءت في أمورالمنافقين في شريعة الله تعالى تعتبر نوع من الحذر لأهل الإيمان حتى لا يجروا فيها ويتدرجوا ويستكمل فيهم شعب النفاق .

وثمة شعب للإيمان أيضًا يتدرج فيها الإنسان فيبقى الإنسان بين مدٍ وجذر .

والنفاق شعرات دقيقة يسيرة جدًا كالإنسان الذي يسبح في العلانية ولكن لا يسبح في السر ، يقوم الليل في العلانية ولا يقوم في السر، يقوم بالنوافل والرواتب في العلانية ولا يتنفل في السر ، يذكر الله تعالى في العلانية ولا يذكره خاليا ، هذه من خصال النفاق لكن لا تخرج الإنسان من الملة ، وهي أشياء يسيرة جدًا ؛ ولهذا أجزاء النفاق الدقيقة لا يكاد أن يسلم منها إنسان إلا الكُمّل، ولهذا الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كانوا يخشون على أنفسهم ، والمنافق هو الذي يأمن على نفسه النفاق ، فمن يأمن النفاق بعد أصحاب محمد ﷺ ؟ فمع مالهم من فضل وكمال علم وقدرة وقرب من النبي ﷺ وتزكيته لجماعة منهم بالجنة ، ومع ذلك يخشون النفاق فقد كان عمر بن الخطاب عليه رضوان الله يسأل حذيفة بن اليمان رضى الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ **كما** جاء في الأثر **(حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب قال مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر أمن القوم هو قال نعم فقال له عمر بالله منهم أنا قال لا ولن أخبر به أحدا بعدك)** [٢] وهذا لأنهم ينظرون إلى دقائق يسيرة جدًا من أمور النفاق ، فينظرون إلى الخلوات والدقائق اليسيرة فيراجعوا أنفسهم ، إذا خلوا تساءلوا هل نحن كحالنا مع النبي ﷺ من جهة القوة في الإيمان !. فينظرون إلى أمثال هذه الأمور الدقيقة .

فمسألة النفاق من المسائل الدقيقة جدًا ، ولهذا ينبغي أن يراجع الإنسان نفسه بين عمله في العلانية وعمله في السر ، والشريعة جاءت بنفي التصنع بنفي المحاباة على حساب الحق وكذلك نفي إظهار الحق للناس دون اقتناع وإيمان .

وذلك أن كل حقيقة توجد في قلب الإنسان ثم لا يعمل بها مع إمكانه لذلك وقدرته عليه فهو على شعبة من شعب النفاق يتدرج فيها بقدر عظم هذه الأمور من النفاق الأصغر حتى يصل إلى النفاق الأكبر .

الرياء والنفاق

الرياء وحب الثناء للأعمال الصالحة من منابت النفاق في نفس الإنسان ، لأن الإنسان يريد أن يرى الناس منه العمل الصالح ولا يريد به وجه الله تعالى ، وهو ضرب من ضروب النفاق المتنامي ، فيحب أن يعمل ليُرى لا يحب أن يعمل ليرى الله تعالى ، وهذا خلل لدى كثير من الناس .

٢) انظر : مصنف ابن أبي شيبة ج7 صفحة 481 .

والشارع حث على دحض الرياء وجاء بمرتبة الكمال في ذلك وهو الإحسان وهو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ولهذا الإنسان إذا كان يعمل لدى أحد ويراه يتفانى أمامه وبمجرد غيابه يفتر ، فالغيب والشهادة لها تأثير على عمل الإنسان ، وخاصة في أبواب النفاق الأصغر.

والمنافقون قد ابتلوا بهذا الأمر فضعف لديهم جانب العبادة فجاء الرياء لديهم فالكسل في الصلاة يأتي لأن الصلاة ليست عن قناعة ، لماذا يقوم وهو كسلان ؟ لأنه يقوم رياء وليس عن قناعة فيفعله بكلفة ليراه أهل الحي ليراه أهل الصلاح ، والناس في ذلك على مراتب متعددة .

وكذلك من الرياء النفاق الأكبر فيحب أن يراه الناس فيحمدوه على الظاهر ولو كانت عقيدته عكس ذلك .

وإنما ثبت الصحابة في زمن الفتن والمحن برغم الشدة والمحن وثبت الصديقون والشهداء والأولياء لأن أمرهم الظاهر عن قناعة بالباطن ، فهم لا يعملون ذلك مجاملة .

وعليه فإن مقدار الباطن ينبغي أن يشابه مقدار الظاهر فإذا نقص مقدار الباطن عن الظاهر فهو ضرب من ضروب النفاق .

والشريعة ما جاءت لتنقص عمل الظاهر ليوازي نقصان الباطن ، بل أمرتك لتزيد من عمل الباطن حتى توازي عمل الظاهر حتى تخرج من شعب النفاق .

ولهذا جاءت الشريعة مواكبة للفطرة كما في قول الله تعالى ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم : 30) وكما جاء في الصحيحين وغيرهم في قول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ)[٣] .

يعني أن الإنسان لديه قناعة فليعمل بها وهو إما أن يكون مؤمنًا ظاهراً أو كافراً ظاهرًا ليتعامل معك أهل الإسلام بالكفر الظاهر .

والأمة تحتاج في التعامل مع المنافقين إلى سياستها الشرعية ، كما يحتاجه الأفراد للتعامل مع المنافقين ، ويحتاجه الإنسان في ذاته إذا وجد في نفسه حب الرياء والسمعة ، فالنفاق يزيد وينقص مدًا وجذرا .

وشر الناس المنافقون ؛ لأنهم يفعلون أشياء إذا أمِنوا ولم يجدوا مدحاً تغيروا ، فهم لم يتغيروا من جهة الحقيقة من جهة القناعات ولكن اختلت الموازين الظاهرة لديهم كمدح الناس وإلا فهم في حقيقة الأمر من جهة الباطن على أمرٍ سواء .

---

٣) رواه البخاري (1358)، ومسلم (2658).

والمنافق هو الذي لا يتلذذ بعمل الباطن ويتلذذ بعمل الظاهر ولهذا سمي نفاقًا ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾(الأنعام : 35) يعنى يضع نفسه في الأرض مستترًا ثم يظهر بعد ذلك فثمة شيء خفاء وظهور ، خفاء للمعصية وظهور للموافقة والطاعة .

خصال المنافقين

أنزل الله تعالى في المنافقين سورتين عظيمتين – وكل سور الله عظيمة – وهما التوبة والمنافقون هذا بالإضافة لآيات متفرقة كثيرة في النساء والحشر وكذلك آل عمران وغيرها التي دلت على وجود النفاق في الأمة .

فذكر صفاتهم دليلاً لخطر النفاق وخطر المنافقين ، والعدو في الأمة على نوعين عدو خارجي وعدو داخلي وهم المنافقون ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون :4) يعنى هم العدو الحقيقي للأمة لأنهم يأتون من حيث لا يشعرون من مأمن المسلمين ويكونون عين لمن كان خارج عنهم لأن ظاهرهم الموافقة وإضمارهم النفاق ، ولعل من أهم خصال المنافقين : الكسل في الصلاة وكره الإنفاق وكره الجهاد .

والصفات التي جاءت في أحوال المنافقين تتحد في شيء أن الإنسان يفعل شيء لو احتاج أن يفعله لا يفعله إلا كرهًا يعنى ثمة شيء يدفعه إليه يريد من ذلك إظهار سمعة أو نحو ذلك لكن لا يفعله من جهة خصيصة نفسه ، ولهذا كان النفاق في الإنفاق ، في الكسل في الصلاة ، في الذكر فلا يذكرون إلا قليلا ، وكذلك في الجهاد فهو أكره شيء لديهم ; لأن أعز شيء لديهم أنفسهم وأموالهم فيفقدونه بالجهاد في سبيل الله ؛ ولهذا ألد أعداء شعيرة الجهاد هم المنافقون ، ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ)[٤] فهذا موضع اختبار ، فعندما تنزل سورة على رسول الله ﷺ ينظر المنافقون إلى النبي ﷺ نظر المغشي عليه من الموت ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد :20) يعنى أن هذه أعظم مصيبة تنزل عليهم هي شريعة الجهاد !.

كذلك دواعي الجهاد من الإنفاق ، من دعم المجاهدين ونصرتهم وعزتهم ، تجد أن هؤلاء حجر عثرة على هؤلاء ، كذلك لمز أهل الإحسان ليس لمزهم بمجرد الإنفاق وإنما لمزهم بأنهم ما أرادوا وجه الله تعالى أو يبخسون قدرهم ويحتقرونهم فليس لهم رسالة واضحة وبينة وإنما تردد بين ما يضمرون وبين ما يفصحون .

---

٤) رواه مُسْلم (3644) .

الحكمة من عدم تسمية المنافقين

والشريعة جاءت بعدم تسمية المنافقين مع أن الله تعالى قد أعلم النبي ﷺ طوائف منهم وفي حديث حذيفة بن اليمان أنه قال (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[٥] .

فالنبي ﷺ عرفهم عددا فعدد اثنى عشر ليس من الأعداد المشتهرة كالسبعين والثلاثين التي يضرب بها المثل وإنما عدد يُقصد بعينه ، فهو عالم بهم عينًا، ولكنه لم يبح بهم لأحد إلا لحذيفة مع وجود علية من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب عليهم رضوان الله تعالى وغيرهم ، ومثل هذا الأمر بعدم تسمية المنافقين له حِكَم عظيمة جليلة القدر منها :

1) أن المنافقين لا يعلم بعضهم بعضا باعتبار خفاء عقائدهم في نفوسهم والشريعة تتشوف إلى عزلهم فالأفضل عدم تسميتهم لبقائهم على سبيل الإنفراد فلا يلجئون إلى التحالف والتلاحم فيُميت جذوة الكفر في قلوبهم ، فإذا أُذن لهم بإظهار النفاق فإنهم سيتداعون يمنة ويسرة ويعلم بعضهم بعضا ويتحدون ويتواصلون ويشكلون حزبًا في الأمة ، ولهذا من ينادون بحرية الآراء هم في حقيقة الأمر يدعون إلى خروج المنافقين عن دائرة الإضمار للإظهار والمكاتفة وحينئذٍ يصبح عدو الأمة خارجي ظاهر وداخلي ظاهر وهو الأخطر على الامة .

2) لم يعلن النبي ﷺ عن أسماء المنافقين عينًا حتى لا يدعوهم إلى إخراج المكنون من النفاق والكفر ولبقائهم في دولة الإسلام فلا ينفرون ويخرجون من الاسلام .

3) أن المنافقين أهل حذق ودراية من جهة المكر فمن الممكن أن يقلبوا الأمر إلى قبلية وحزبية ، كما جاء في أمر عبد الله بن أبي رأس النفاق ورأس الكفر ، فقد جاء فيه جملة من الأحاديث ، تركه النبي ﷺ ولم يواجهه بإبراز اسمه وإعلانه كفايةً لشره والسبب في ذلك أنه محسوب من الأنصار فهو من الخزرج ولديه يدٌ عند اليهود فربما قلبها عبدالله إلى مواجهات قبلية وهذا من السياسة الشرعية .

٥) رواه مسلم في صحيحه ج 8/ ص 128 حديث رقم: 7212

ولهذا ينبغي عدم التصيد والتربص بزلات المنافقين التي يسترون بها حتى لا يخرجون المزيد ويصطفون مع غيرهم ويتلاحمون مع من يخفون ذلك مثلهم .

ولهذا جاءت الشريعة بعدم توجيه السهام للمنافقين كأفراد وإنما توجيه السهام إلى النفاق وخطره وصفات النفاق والمنافقين بضرب من ضروب التلميح الذي به يخافون من إظهار مزيد من النفاق .

النفاق بين الكفر والعمل

منافقي العمل وهو النفاق الأصغر أكثر من منافقي الكفر ولهذا جاء عن الحسن البصري قال (**لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات**)[٦] كما جاء عن حذيفة بن اليمان نحوه ، وهذا يعني أنكم تخرجون فلا تجدون أحدًا ، من جهة كثرتهم ووفرتهم ، وقلما يسلم أحد من شعب النفاق ولو على الأقل اليسيرة ، ولهذا الصحابة حين يراجعون أنفسهم ويخشون من النفاق فهم ينظرون إلى دقائق يسيرة جدًا من أمر المفارقة بين أمر العلانية وأمر السر وأحوال ، فهم من مرتبة كمال وعلو فينظرون إلى دقائق وأحوال لا يبصرها المتأخرون .

الواجب على العلماء حيال المنافقين

التعامل مع المنافقين من أدق المسالك في السياسة الشرعية التي يقوم بها العالم وخاصة في الزمن المتأخر في زمن شائك التعامل خاصةً في أموره السياسية .

النبي ﷺ كان يأذن للمنافقين بالدخول للمساجد ونحو ذلك ; ولذا فإن الداعي والعالم وكذلك المصلح ينبغي أن يحذر من التسمية قدر وسعه وإمكانه وألا يلجأ إلى الأسماء إلا في سبل ضيقة ، فالنبي ﷺ لم يسمي إلا في نذرٍ يسير جداً في مسألة حذيفة بن اليمان ، وحتى لا تقوى شوكتهم بالتلاحم فيخرج ما لديه من مزيد النفاق والاعتقاد من جهة ، ويخرج من الإسلام من جهة أخرى، فمن الرحمة بالخلق الأ تدفع الناس للنار وإنما تؤلف قلوبهم بشيء من التحذير والتأليف ، وهذا من الحكمة الشرعية ذكر الوصف وتلاوة الآيات فقد كان النبي ﷺ يقرأ سورة المنافقون في صلاة الجمعة لأن صلاة الجمعة لا يكاد يتخلف عنها أحد فيعلم المنافق صفاته ثم يتبرأ

٦) أخرجه ابن بطة في (الإبانة الكبرى) ، 698/2 .

بشيء من العمل ويفعل ما يقول وألا فقد عادى النبي ﷺ ، وكذلك دعوة للمؤمنين أن يحذروا من هذه الصفات.

وأما عن الحكمة في إخبار النبي ﷺ حذيفة رضى الله عنه بأسماء المنافقين دون غيره من الصحابة وكلهم فيهم الفضل فيظهر في هذا حكمتين :

1) أن النبي ﷺ يعلم بما علمه الله تعالى إياه أن ثمة خلفاء يكونون بعده والتعامل مع المنافقين عيناً لا يوفَّق فيه إليها إلا نبي معصوم ويبقى البقية في دائرة البشرية بلا عصمة وربما يدعو إلى شيء من المواجهة ، ولهذا عمر بن الخطاب المحدث الملهم الفاروق كان يدعو النبي ﷺ ويستأذنه بضرب أعناق المنافقين ففي غيابه ربما أراد الخلفاء إذا علموا أعيان المنافقين شيء من المواجهة ، وهذا من السياسة الشرعية التي علمها النبي ﷺ لخلفائه.

2) ربما كان لحذيفة بن اليمان شيء من المزيد الفطري وهو تمام الكتمان فخصه الله تعالى بشيء من ذلك وهي من الخصائص الفطرية وليست من أمور التفاضل بين الناس فربما يكون هذا الشيء غير مكتسب وإنما هي كبسطة الجسم ولونه وغير ذلك .

والخلاصة :

أن النبي ﷺ لم يسمي المنافقين إلا في أضيق السبل ، يذكر الوصف ولهذا الصحابة ينظرون إلى الوصف ويطبقونه فقد جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ (كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ أَسَأْنَا بِهِ الظَّنَّ) [٧] وهذا من الحكمة الشرعية ذكر الوصف حتى يتداعى الناس إلى نفيه أو اثباته .

السياسة الشرعية في مواجهة النفاق

استأذن الصحابة النبي ﷺ بضرب أعناق المنافقين ولكن النبي ﷺ أراد أن يبين لهم الآثار كما في حديث عمر (يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) [٨] وسكوت النبي ﷺ عن بعض الوصف أو بعض الأفعال وما يكون من الصحابة لأمرين :

الأمر الأول: أنه قد يصح من غيره ولا يصح منه ، فقد يكون سكوته إقرار ولكن يختلف عن التصريح .

الأمر الثاني: مواجهة الوالي للأفراد يكون في نطاق ضيق ، فالنبي عليه الصلاة والسلام واجه أفراد لكن في دائرة ضيقة .

---

٧) رواه البزار والطبراني وابن خزيمة انظر صحيح الترغيب والترهيب 169.

٨) رواه البخاري (4525) .

وقد استأذن الصحابة النبي ﷺ بضرب العناق كما جاء في قصص كثيرة كما في تخلف كعب بن مالك وقصة حاطب وقصص عبدالله بن أبي ، وربما قالوا منافقين أو قالوا كافرين فلم ينكر الرسول هذا لأنه في ظاهره حق ، ولكن النبي ﷺ كان له حكمة وسياسة ، فأراد أن يبين أن التطبيق له آثار .

ولهذا لما أُستأذن بضرب عنق عبدالله بن أبي قال (دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) [٩] فلم يقل أن الدم حرام ولم يقل أنه من أهل الإسلام ، فأراد أن يبين أن ثمة دواعي تؤثر على مواجهة المنافقين .

ولعل من أخطر خصال المنافقين أنهم يضعون أيديهم بأيدي أعداء الإسلام من اليهود والنصارى .

يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الحشر : 11) فثمة تواصل بين منافقي المدينة وبين أهل الكتاب يقولون إذا أخرجكم محمد فنحن معكم ولكن الله تعالى يبين أنهم كاذبون في دعواهم هذه ، وإنما هي دعوى مصالح يُأمِن بعضهم بعضا .

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى لهم سبب في وجود المنافقين والحفاظ عليهم ؛ ولهذا يقول الله تعالى عن حال اليهود ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران : 72) هذا حث من اليهود لوجود المنافقين وبقائهم ؛ أي تدرجوا بين إظهار إيمان وتدرج فيه ، فهذا نوع من خلخلة الصف .

واحرص ما يحرص عليه اليهود والنصارى هو وجود أهل الاضطراب في بلد الإسلام ليفقدوا ثوابت المسلمين ويشككوا فيهم من الداخل ليحافظوا على بيئة النفاق ، بل إنهم يتخابرون ويعلمون ؛ ولهذا كعب بن مالك لما تخلف عن النبي وضاقت به الأرض دُفِع إليه كتابا من ملك غسان (فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ) [١٠] فلديهم أعين في بلدان المسلمين ، وهذا في زمن النبوي ولم يكن ثمة وسائل اتصال حديثة ، ولا مخابرات ونحو ذلك ، فكيف في زماننا هذا !.

ومن السياسة الشرعية إذا وجد في الأمة إمكانية إطلاق لفظ منافق على شخص بعينه فلا يُنكر عليه ، وهذا يحتاج إلى شيء من السياسة الشرعية يعرفها أهل العلم والفضل وفيه اقتداء ولهم سلف ، ولكن نفي أفعال المنافقين

٩) سبق تخريجه انظر 8 .

١٠) القصة بطولها في صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك (113/8 ح 4418) وانظر القصة أيضاً في تفسير الطبري (0/11) وابن كثير (166/4-168) .

وتتبع كل فعل ووصف أفعالهم على سبيل الدوام وفصلهم في دائرة الإسلام يجعلهم يتواصون على الخروج فيرتفع بعضهم ويتحدون على أمة الإسلام .

ولكن ينبغي مواجهة الفعل والوصف ؛ لهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) [11] وكذلك حديث عبدالله بن عمرو في الصحيحين وغيرهما (أَرْبَعٌ مِنْ كُنْ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، وَمَنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) [12] .

وهذه الصفات التي ذكرها النبي ﷺ إشارة إلى وجود المعنى العام في المنافقين كنوع من تحديدها وتعريف الناس بأحوالها .

وعليه يكون فقه التعامل مع المنافقين كالتالي :

1 – ذكر صفات المنافقين حتى في حال شهودهم .

2 – محاربة ما يدعون إليه من عقائد وأهواء وشبهات .

3 – التشديد على أفرادهم في وردو مخالفة وهذا يقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (التحريم: 9) معنى اغلظ عليهم اشدد عليهم ، وقد جاء في تفسير ابن جرير الطبري لهذه الآية قول ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ ، وقيل (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) قال ألا يظهر منهم معصية إلا وأقيم عليهم الحد ، وجهاد الكفار بالسنان وجهاد المنافقين باللسان .

تطهير النفس من النفاق

عدد المنافقين الذين رجعوا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك اثنى عشر منافق كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان ، وبالنسبة للمجموع فهم في جملتهم نحو ثلاثمائة ، وهذا الكم أُنزل فيهم سورتان وجاء فيهم عشرات الآيات ، فهذا دليل على خطر النفاق في الأمة وأنه داء عظيم ويكفي في ذلك قول الله تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون :4) .

---

١١) رواه البخاري (33) ومسلم (59) .
١٢) رواه البخاري (34) ومسلم (58) .

فالتعريف بصفاتهم من الأمور المهمة وعليه يجب على الحاكم والعالم أن يذكر صفات النفاق والمنافقين في الخطب وفي المحافل والتذاكر بصفاتهم حتى يحذر الناس ويتمايز فيما بينهم ، ولا حرج على الناس أن يتذاكروا في صفاتهم وتعيين المنافقين فيما بينهم عينًا ، ووصف بعض الناس علانية بالنفاق لوجود دواعي شرعية لذلك فهذا مما له سلف عند الصحابة .

ولعل من أقوى ما يُطهّر به المسلم نفسه من النفاق أمران :

الأمر الأول : مجاهدة ما يتعلق بالكلفة والمشقة سواء من إقامة التكاليف أو النفقة ; والكلفة والمشقة تكون من جهة القيام للصلاة ونفقة المال فينبغي العناية بها ونبذ التكلف عنها .

الأمر الثاني: الإكثار من عبادة السر كقيام الليل وذكر الله تعالى في الخلوات ; وقد سأل رجلٌ **حذيفة (فقال : يا أبا عَبْد اللهِّ ، إني أخشى أن أكون منافقا ، قال : تصلي إذا خلوت ، وتستغفر إذا أذنبت ؟ قال : نعم ، قال : اذهب ، فما جعلك الله منافقا)**[١٣] .

وعبادة السر تظهر في أشياء كثيرة منها قيام الليل ولهذا كانت صلاة الليل أفضل من صلاة النهار وحتى الوتر أفضل من الرواتب كلها لأنها في زمن خفاء وزمن لا يراه أحد فيفعلها الإنسان خافيا فيظهر فيها قوة الإيمان .

فينبغي على الإنسان كل عمل يعمله في العلانية أن يبحث عمله في السر.

كما ينبغي لإنسان أن يفرح بالخلوات للطاعات كما يفرح أهل المعاصي بالخلوات للشهوات فيفرح بخلوته ، يستقبل القبلة ويصلي ويستغفر ويهلل ويذكر الله كذلك في خلوته في طريقه في سيارته يكثر من الذكر فهذا من دواعي نفي النفاق لأنه لا يراه إلا الله تعالى .

١٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (66616) .